

الفكر العربي والهوية: أزمة نقد أم قصور باحث

Arab Thought and Identity: A Crisis of Criticism or a Researcher's Shortcoming

د. بن عزة فاطمة الزهراء¹ ، أ.د. سيكوك قويدر²¹ المركز الجامعي نور البشير - البيض / الجزائر - f.benazza@cu-elbayadh.dz² المركز الجامعي نور البشير - البيض / الجزائر - k.sikouk@cu-elbayadh.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/12 تاريخ القبول: 2025/11/11 تاريخ النشر: 2025/12/10

ملخص:

حاولت معظم التيارات الفكرية التي برزت في التناول النقدي للفكر العربي المعاصر من أن تؤصل منطلقاتها بهدف تجاوز الأزمة . ويمكن تصنيف هذه الاتجاهات في تيارينادي بالولاء للفكر الغربي منطلقا معرفيا ومنهجيا، كأداة يتخذها العقل العربي لمجانة العوائق والتخلص من الأزمة والارتقاء إلى مستوى الحضارة الكونية، في المقابل وجود تيارات أخرى رافضة لهذا التوجه، ومتبنية بذلك مبدأ الرجوع إلى التراث، باعتباره القاعدة الأساسية التي من خلالها نستطيع الحفاظ على الهوية العربية وعلى الخصوصية الفكرية. ومن هنا يجد الباحث العربي نفسه بين إشكالية التراث والتجديد في اعداد ابحاثه خاصة المتعلقة بالجانب الاجتماعي والثقافي مما يحدث لديه ارتباك أكثر مما يحدثه موضوع بحثه.

الكلمات المفتاحية: الفكر العربي المعاصر، العولمة، الجمود الفكري، التراث، الهوية.

Abstract:

Most of the intellectual movements that have emerged in the critical approach to contemporary Arab thought have attempted to establish their premises with the aim of overcoming the crisis. These trends can be classified into a movement that advocates loyalty to Western thought from an epistemological and methodological perspective, as a tool adopted by the Arab mind to overcome obstacles, overcome the crisis, and rise to the level of universal civilization. Conversely, other movements reject this approach, adopting the principle of returning to heritage as the fundamental basis through which we can preserve Arab identity and intellectual privacy. Hence, the Arab researcher finds himself caught

between the dilemma of heritage and innovation in preparing his research, especially those related to the social and cultural aspects, which cause him more confusion than the subject of his research.

Keywords: Contemporary Arab thought, globalization, intellectual stagnation, heritage, identity.

1. مقدمة:

لا شك أن مسألة الأصالة والمعاصرة، أو ما يسمى "بالتراث والحداثة" أو "التقليد والتجديد" قد أثارت نقاشا كبيرا وطرحت تساؤلات كثيرة، إذ هل يمكن لحضارة معينة أن تأخذ من حضارة أخرى مختلفة، دون خطر من شأنه أن يهدد هوية المتلقي للمعرفة ويؤثر فيها؟

هذا هو أصل الإشكالية التي نحن بصدها. فكلما طرح موضوع التراث، نجد التيارات الفكرية التي تنادي باعتناق الفكر الغربي وتؤكد على التشبث بالتراث والحنين إلى الماضي (الصالة) يعتبر ابتعادا عن التقدم وتخلفا عن الحضارة، إنما هو تخاف وتقهر وجمود. وعندما يطرح موضوع الحداثة والعصرنة، نجد أنصار التراث والأصالة يحذرون من هذا بحجة حدوث تغريب يكون سببا وجيها في احداث انفصال عن التراث والتنكر للهوية والدين.

2. الفكر العربي المعاصر

بالرغم من أن لكل مجتمع مفكره وعلماءه، فإن الفكر مسألة عابرة للحدود، وسماته ترتبط بمجموعة من الأسس والمميزات التي ترتبط في حد ذاتها بما هو مشترك بين مجموعة أو مجموعات من الشعوب والأوطان. ولذلك ظهرت مفاهيم تحدد التوجهات الفكرية انطلاقا من أقاليم وجهات أكثر شساعة من الدول وأعقد تنظيم من المجتمعات، وفي هذا الصدد يجري الحديث عن الفكر الغربي الأوروبي، والفكر الأنجلوسكسوني، والفكر الأوروبي الشرقي والفكر الآسيوي... والفكر العربي.

وعندما نتحدث عن إشكالية الفكر العربي المعاصر نتحدث عن مجمل القضايا التي تخص الأوضاع العربية الراهنة في علاقتها بالماضي العربي وبالحاضر الأوروبي الذي يفرض نفسه حاضرا للعالم كله، اذ نختص بالذكر الواقع العربي على المستوى السياسي، الاجتماعي، وكذا الاقتصادي، كلها جوانب أحدثت بها تغيرات على مر الزمن فأصبح ضروريا اليوم التمييز بين جانبين؛ جانب موروث من ماضينا والآخر من حاضرننا او حتى حاضر غيرنا (الجابري، 1990) فالتشبث بالتقاليد والماضي الأصيل ليس بالضرورة الامتناع عن التكوين الجديد والتغيير المعاصر الذي يخدم الفكر العربي في عصر النهضة. بل يمكن أن يكون هذا التوجه أصلح من التوجه الإنسلاخي الذي يتنكر لأصوله وأسسهِ العريقة، من جهة، وأصلح من التوجه الدغمائي الذي يتملل في معتقدات ومفاهيم مغلقة لا تتيح التفتح والتفاعل مع الآخر.

ان عبارة الفكر العربي تعني مضمون هذا الفكر ومحتواه : تلك الآراء والأفكار والتصورات التي يعبر بواسطتها أي شعب (أو أمة) عن مشاكله واهتماماته وافكاره وأيديولوجياته بمعناها الواسع الذي يظم منظومة الأفكار السياسية والدينية والفلسفية، فالعلم لا وطن ولا لون له. (الجابري ، 1990) باعتبار ان المعرفة والوعي هم من يشكل عقل الشعوب ومسؤولين عن تحقيق أهدافها.

وبالتالي فان الاشكال الذي يطرح امام الباحث العربي هو:

ثنائية العقل العربي كعلم، والفكر العربي كإيديولوجيا؟

فالفكر العربي كوعاء فكري اليوم يحمل في كثير من الأحيان تصورات وتكوين لأفكار معقدة تقليدية تكون بمثابة استدلال يصعب على العقل العربي كعلم تغيير معانيها، وما زاد من توسع الفجوة وصعوبة التحكم فيها التيارات والمناهج البحثية الغربية المعاصرة التي تعمل على التفسير والتحليل والربط وفق منطلق نظرياتها واستنتاجاتها المعرفية التي تكون بعيدة عن موضوعات الباحث والبحث العربي نظرا لاختلاف البيئة الطبيعية

والاجتماعية، واختلاف المعطيات التاريخية والاقتصادية، واختلاف التكوين المجتمعي والبنية الفكرية والثقافية بشكل عام.

3. التراث والفكر العربي المعاصر

من الشائع خطأ اعتبار الفكر جزءا من التراث، لكن مما لا شك فيه أن الفكر بشكل عام، مرتبط ارتباطا وثيقا بالتراث اللامادي للمجتمع والأمة، ولذلك فإن كل الحضارات التي تعاقبت عبر العصور تمتلك فكرا مرافقا لتاريخها يتكرس من خلال التقاليد والمعتقدات والممارسات التي تمثل بعضها من الأسس التي بنيت عليها هويتها.

أما في الفكر العربي المعاصر، فلقد ولدت هذه الإشكالية على نحو بالغ الوضوح، في ستينيات القرن العشرين الماضي، وللإشارة فإن الفرق بين ظاهرة الاهتمام بالتراث، والتي قد بدأت مبكرة، وبين ميلاد إشكالية التراث، وهي أتت متأخرة نسبيا أمر مختلف؛ ففي النصف الثاني من الستينيات برزت عناية وافرة من قبل باحثين عرب بقضية التراث مثل علي سامي النشار، شوقي ضيف، الجابري وآخرون. من هنا بدأت الإشكالية في التبلور حول كيفية تحصيل المعرفة وتكوين العقل العربي كحقل معرفي على خطى جديدة.

وفي هذا الإطار، يري حسن حنفي أن التراث ليس مخزونا ماديا في المكتبات، وليس كيانا نظريا مستقلا بذاته، فالأول موجود على المستوى المادي، والثاني موجود على المستوى الصوري، لأن التراث في الحقيقة مخزون نفسي عند الجماهير، وليس فقط قضية دراسة للماضي العتيق فحسب، بل هو أيضا جزء من الواقع ومكوناته النفسية، فمازال التراث القديم بأفكاره وتصورات ومثله موجها لسلوك الجماهير في حياتها، (الجوهري، 2006) و التراث يشكل موضوعا جادا للأفراد والباحثين في ضوء الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتنمية سواء الاقتصادية، الاجتماعية، او غيرها حيث تتطلب اشراك الجمهور من جهة والخبراء من جهة ثانية قصد الوصول الى نتائج علمية من شأنها دفع عجلة التنمية في مختلف القطاعات من خلال حفظ التراث في مقابل تشجيع فكرة الابداع وهذا لا يتحقق الا بوجود منهج علمي يراعي هذه الخصوصية والا وقف الباحث امام مفارقة منهجية قبل

ان تكون موضوعية. تلك المفارقة التي تنتج عن عدم التلاءم بين الموضوع والمنهجية عندما لا نراعي خصوصية المجتمع.

إن التنمية عملية معقدة وشاملة تضم مختلف انساق المجتمع: الاجتماعي، السياسي، الثقافي، الاقتصادي، بهدف احداث التغيير وتحقيق الرقي لدى المجتمعات الانسانية. وهنا نشير إلى أن مالك بن نبي، الذي يعد احد اهم المفكرين الجزائريين وأعلام النهضة الفكرية الإسلامية حيث كان له جهود في بناء الفكر الإسلامي الحديث-على موضوع التنمية والإصلاح انطلاقا من عملية التطور الذي تبدأ من الانسان، أي تغيير الافراد وتحقيق الارتقاء لهم، اذ اعتبر مالك بن نبي الانسان المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحديد الوسائل المناسبة لذلك في أي حضارة إنسانية، مع تأكيده على البعد الخصوصي للحضارة الإسلامية. والتجارب التنموية التي شهدتها مختلف الدول العربية، في حقب تاريخية مختلفة، وباءت معظمها إلم نقل كلها بالفشل، إنما كان ذلك نتيجة حتمية لعدم مراعاة الخصوصية والتميز عند تطبيق النماذج الغربية والأوروبية الشرقية على المجتمعات العربية دون تكييف أو تجويد.

إن مصطلح التراث في ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة مصطلح عام وغامض، قد يستحيل علينا فهمه بدقة لما يختلze من معاني وما ينجر عنه من دلالات وما يقصده من مفاهيم. وكيف يتناولوه كل مفكر. ولا شك في أن السبب الجوهرى في ذلك هو اختلاف المنطلقات والمراجع الفكرية وطرق التناول وتباعد المواقف الإيديولوجية وتنوع الثقافات.

إن اصطدام العالم العربي بالحداث وانتشار الاستعمار هما السببان الرئيسان في طرح مصطلح التراث كموضوع نقاش في حقل الفكر والإبداع. لقد كان لمظاهر الاستغلال والاستيلاء والتغريب دافعا في بروز إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، وأرضية لمعالجة مفهومي الهوية والخصوصية. وفي هذا الصدد يرى عديد الباحثين في هذا المجال أن التراث يستعمل في خطابنا المعاصر استعمالا نهضويا، ويربط النهضة بالغربة في وعي

الذات، وخاصة باعتباره نوعاً من ميكانيزمات الدفاع عن الذات، وهذا يلعب دوراً إيجابياً في الحفاظ على الهوية. (الجوهري، 2006)

4. الهوية والتراث في الفكر العربي المعاصر:

لا يمكن الحديث عن الهوية في غياب التراث، وحتى المجتمعات الغربية التي يعتقد البعض، كما يذهب إلى ذلك "دي توك فيل" De Tocqueville، على أنها تأسست على العقد الاجتماعي بعيداً عن التاريخ المشترك واللغة والعادات والتقاليد، والثقافة واللغة المشتركة، فإن تلك المجتمعات بلغت مستوى هاماً من التطور الاقتصادي ولكنها فاقدة للتماسك الاجتماعي.

لم يبدأ اهتمام الفكر العربي حديثاً بالإشتغال بمفهوم التراث والهوية والمسائل المرتبطة بهما إلا مع نهاية القرن التاسع عشر. ومنذ تلك الفترة لم يتوقف هذا الانشغال بل لقد تحول إلى سيرورة طويلة تتكرس من خلال الطرح الإجرائي للمفاهيم والنقد المعرفي والمنهجي ضمن إعادة صياغة لأعقد الإشكاليات المرتبطة بالمفهومين المذكورين آنفاً. وعادة ما يتم ذلك في إطار طبيعة الموضوع ونوعية المنهج وزاوية المقاربة. وهذا ما انعكس جلياً في حقول البحث في العلوم المرتبطة بالإنسان عموماً كالعلوم الإنسانية والاجتماعية بمختلف تشعباتها، وفي مجالات البحث في كل ما يرتبط بالبناء الفوقي للمجتمع ضمن الآداب والفنون والفكر الثقافي لما لمسألتي الهوية والتراث في التاريخ العربي الإسلامي من جدوى في إعادة بناء الثقافة العربية الإسلامية من المنظور الحديث، وهو ما من شأنه المحافظة على الهوية وترسيخ الخصوصية وإبراز الجذور الوجودية. وإن كان من هدف لهذا الجهد المتواصل، فإنما لاعتباره الاستراتيجية المثلى التي من خلالها تتحدد عملية إعادة إطلاق مشروع حقيقي يهدف إلى تكريس وترسيخ وتثمين الثقافة العربية الإسلامية. ويعتقد أغلبية الباحثين أن هذا الأمر لا ولن يتحقق إلا بغربلة التراث العربي الإسلامي من الشوائب العالقة به عبر مختلف المراحل التاريخية، وإعادة تفسيره بإبعاد نقدية هادفة مدعمة بخلفية إيديولوجية لمحاربة المستعمر والتخلص من التخلف ومعارضة النزعة

المركزية للغرب ، وبخاصة بعد انكشاف عورته في أعقاب الحرب التي يشنها الكيان الإسرائيلي بدعم لا مشروط من الدولة الأمريكية "اللقطة" وتحت أنظار حماة الحضارة الأوروبية التي تتغنى بالأخوة والمساواة والحرية وحقوق الإنسان، وتتعاطى مع مختلف الأزمات العالمية والحروب بالكيل بمكيالين. مما يمكن الباحث العربي من دراسة خصوصياته الثقافية، بمنهج علمي يتماشى مع ماضيه وحاضره، بحرية علمية تمكنه في خوض غمار بحثه دون الخوف من الوقوع في المحذور.

ففي طيات النقاش الدائر في الفكر العربي المعاصر نستشف ثلاثة مواقف رئيسية كلما التقى هذا الفكر بثقافة وافدة اليه من الخارج، حدث له:

- موقف معارض للثقافة الوافدة، يصل إلى حد التطرف، ويعتمد في معارضته على مواضع الضعف والتناقض ويعتمد في ذلك على مرجعية وحيدة تتمثل في الشريعة الإسلامية.
 - موقف متقبل للثقافة الوافدة ومدافع عنها، على أساس أن التعارض بين الوافد والشريعة منعدم أو على الأقل غير مؤثر. ولذلك فهو يغذي فكرة أن الوافد يحمل من الأفكار ما يمكن المجتمع من التطور ويفتح آفاقا للخلق والإبداع.
 - موقف توفيقى وانتقائي، يدافع على ضرورة الجمع بين مقومات الطرفين وتأسيس رؤية جديدة، وإذا كان هذا الموقف قد حقق نوعا من التقدم واكتسب أنصارا في البداية. ورغم ذلك تراجع تبلور هذا الاتجاه وكانت نتائجه مخيبة للآمال.
- ويعود سبب هذا التراجع كما يراه الجابري لسببين :

الأول: لأنهم ظنوا أن الغرب سيمنحهم العلم الذي بواسطته أصبحت أوروبا سيدة العالم.

و الثاني: لأنهم لم ينتهوا إلى أن الاقتباس والأخذ عن الغرب أو الآخر عموما، لم يعد حرا، كما كان الأمر في العصر العباسي، يوم كانت الأمة في موقع الغلبة، تقلب الإرث اليوناني، تأخذ ما ارادت وتترك ما تريد. (الجابري، 1984).

لقد عمل الغرب، بالمفهوم الجيوسياسي، على بناء حضارة اعتمادا على ما استلبه من الحضارات السابقة وعلى جهود وموارد المستعمرات التي نهب خيراتها المادية في الماضي والحاضر. وعصارة انتاجها الفكري والعلمي من خلال استقطاب الكفاءات والعلماء والمبدعين الذين جعلهم ينسلخون عن أوطانهم ويقدمون له الولاء التام.

والغرب المهيمن اقتصاديا وسياسيا في الوقت الراهن، هو من يمتلك إمكانية تحديد مايمكن وما لا يمكن اقتباسه، والكمية والزمن الذي يتم فيه ذلك. بل وأكثر من هذا فإنه يحدد حتي الكيفيات التي يتم بها الاقتباس، لا لشيء إلا لأنه لا يريد فقدان التفوق ويريد أيضا أن يستمر استلابه لإرادة الشعوب في العالم الثالث. والساذج من يعتقد بأن تطور وسائل الاتصال وانفتاحها على العالم قد سهل عملية الوصول إلى المكنونات. إنما ما يستهلكه سكان ما هو خارج جغرافيا الغرب الراهن، لا يعد أن يكون قشور ما تختزنه قواعد العلم والمعرفة.

إن هذا الوضع هو الذي أفرز ثلة من المفكرين العرب بمثابة الفيلق الأمامي لبلورة خطاب فكري وثقافي يشكل التراث العربي الإسلامي حجر الزاوية فيه مهما اختلفت منطلقاتهم الفكرية والمنهجية.

وقد تعددت أفكارهم واختلفت مناهجهم، فمنهم من درس التراث من منطلق عقلاني، محاولا تغيير نمطية الدراسات الفكرية وإخراج الإرث الثقافي من دائرة الاستهلاك، ويعتبر محمد عابد الجابري من أهم المفكرين الذين نادوا بهذه الفكرة، كما نادى كثيرون بضرورة التخلص من الفكر الاستشراقي وإعادة صياغة الموقف الفكري الراهن انطلاقا من إعادة استيعاب الذات العربية وجعلها المدار الأساسي في الدراسة،

ومن جانب آخر، فإن النقد قد اختلفوا في تحديد معاييؤهم النقدية حيث أن بعضهم رأى في الاختراق (الخرق) أمثل معيار، يمكنه إبراز ماهو حدثي في التراث العربي الإسلامي. وقد يكون أدونيس أبرز ممثلي هذا ممثلي هذا التوجه. ويظن البعض على أنه رجح على تجنب الفكر الثقافي العربي عند تعاطي النماذج العلمية إلا انه عند التمعن في أفكاره

يظهر جليا ويتضح انه اعتبر التراث جوهر ثقافي، لا يمكن التغاضي عن الأثر الذي يحدثه في الأبحاث العلمية عند التحليل والاستدلال، فاذا كان العلم يعتمد على تجاوز الماضي لتحقيق تقدم أكبر فإنه لا ينفيه أو يعدمه. وهذه المقولة لا تنطبق على جميع جوانب الحياة البشرية، قد يكون العلم هنا يكون غير كاف لتحقيق غايته فبرغم من تطور النماذج الغربية لكل علم الا انها ستكون عاجزة في تحقيق نتائجها وحدها العلمي امام المكونات الأساسية والمختلفة لكل مجتمع، على أساس أن لكل كيان اجتماعي خصوصياته ومميزاته، كما أشرنا لذلك سابقا.

ويرى آخرون وعلى رأسهم الغدامي بأن هناك أنساقا ثانوية في النصوص الفنية والإبداعية تتحكم في التراث من حيث أنها تحدد الإشعاع الفني والجمالي الذي ينبع من النص ويمارس على المتلقي. والمطلوب هو اكتشاف تلك الأنساق بالمعالجة النقدية للبعد الثقافي في النص. في حين يقر حمودة عبد العزيز بوجود كم هائل من الإشارات التي يمكن أن تكون الأسس المبدئية الأصلية للنظرية العربية.

في حين ان الجابري قد كرس البنيوية، والتحليل التاريخي والطرح الايديولوجي، غير ان ثمة خلافا واضحا من حيث المنهج عند كل منهما، فالأول يضع في اعتباره أهمية الذات، والشعور، والوعي، بل ويرى كل موضوعات التراث والثقافة العربية من خلال الذات، ويتم تأويلها كذلك من خلالها، في حين ان المنهج البنيوي عند الجابري يركز على اللاشعور كمقولة فلسفية تسود أثناء دراسة الموضوعات، فالتراث هو ما خلفه الأجداد من تراكمات معرفية ونتاج فكري في سياق سيرورة اجتماعية اقتصادية عبرت الزمن من الماضي إلى الحاضر على حاملها التاريخي من الأجداد إلى الآباء والأبناء ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل. وتعتبر تلك الرحلة سيرورة معقدة يتطلب فهمها وتفكيكها وتبسيطها والتعريف بها مهارة علمية وقوة فكرية وشساعة ثقافية.

لقد اشتغل الجابري على تحديد المرتكزات المعرفية ومقومات العقل العربي ونقدها، وكان هدفه في ذلك التأسيسي لوعي فكري نقدي ديمقراطي وليبؤالي وحدائي قائم على تقويض

ونقد وتجاوز الفكر الإصلاحى النهضوى. وتلك هى تجربته لتأسيس الدعامة الأساسية لفكر تراثى علمى ناضج باستخدام المناهج الغربية فى قراءة جديدة برؤية حديثة. ويعد ذلك استثمارا موضوعيا لا عقائديا لدراسته. أو بمعنى آخر الاعتماد على المناهج بغض النظر عن الخلفيات الإيديولوجية التى أنتجتها.

ويؤكد الجابري على أنه أصبح من الضرورى، قراءة التراث بجدية وبروح نقدية جديدة حتى يتمكن الناقد من تحديد مواطن الضعف والقصور ويعمل على تجاوزها، مستعينا فى ذلك بما بالعلمية فى المواقف التراثية التى تضحى صالحة للتحقق من الواقع الحالى ويكون لها التفوق والأولوية. ولا يتأتى ذلك إلا بإعادة القراءة والصياغة الجذرية، وهذا هو الأمر الذى يتطلب الاستعانة بتطبيق الأدوات والمناهج الغربية مثل الديكارتية وفلسفة الأنوار كمحاولة للتركيز على مسألتى العقلانية والتقدم. وهو بذلك يضع حاجزا أمام المقاربة الشوفينية للتراث، تلك التى تفرض على الباحث ضرورة التحرك داخل إطارا محدد مسبقا.

لقد أصبح التراث يشكل ثقلا إيديولوجيا ضخما ويمثل عائقا لاستيعاب الواقع الحاضر والماضى بطريقة صحيحة، وعليه يستوجب علينا العقلانية فى قراءته مما يجعله قادرا على تبلور الفكر والإرث الثقافى الوازن فى الحاضر والخالى من التعصب، لأنه وبمثل هذا التوجه استطاعت الحضارات عبر العصور أن تؤسس لبعث إنسانى كونى يتأسس على فكرة التكامل بين الأنا والآخر، ولولا ذلك لما تمكن الإنسان من حلحلة ما أعاقه من مصاعب فى عملية التحرر من قيود الطبيعة.

وإذا كان كل من ابن حزم والشاطبى قد اعتمدا النص القرآنى وعلم أصول الفقه فى تأسيس الوعى العلمى الجديد بإخراجه من المتعارف والمألوف وصياغته بعقلانية هادفة تخالف اختصاره فى توليد وتفسير النصوص والانتقال به إلى تفعيل الفكر العربى، فإن الجابري يطالب بضرورة ملحة لإعادة فهم ذلك.

وهنا يجب الإشارة إلى أن العقل الذي أوجده الله في الإنسان، جدير وقادر على أن يكيف معطيات الواقع مع النصوص والأحكام الدينية مع مراعاة التحولات الحاصلة في المجتمعات والتطورات الهيكلية والوظيفية في أساق المجتمع.

ولا ينحصر التراث في الأديان أو الفكر الديني برغم العلاقة العضوية بينهما بل يصبح التراث بوصفه بطاقة لوعاء الحضارة جزءاً عضوياً من إشكالية المعرفة والبحث عن الحقيقة، وبالتالي لا حضارة من دون تراث. وتلك هي الفكرة الأساسية في كون أنه لا شيء يخلق من العدم. إن كل ظاهرة إنشائية إنما هي نتاج لما سبقها وأساس لما سيأتي بعدها. ولا يضع الجابري نفسه موضع صاحب الرسالة الأول، أو المبدع بل إنه يعتمد على من سبقه من المفكرين المتميزين والعلماء المستنيرين لوضع تصور جديد ومخالف.

وإذا كان ابن حزم قد تبني الاتجاه الظاهري في التعامل مع البيان العربي، فإن الجابري اختار المنطق العقلاني كأنسب طريقة، لا لاكتشاف "الدرر الحسان" فحسب بل لترويض تلك الدرر وجعلها في خدمة الواقع، حتى تكون أدوات نهضة ولا تبقى في شكل مسكوكات مخبأة.

ومن منظور آخر، فإن نصر حامد أبو زيد كان يسعى استخدام أفكار عصر النهضة كموقف مغاير للسكونية الموروثة وكدعوة لخلخلة وتفكيك البنى المعرفية، تفكيكها وفهمها. بمعنى أنه يجب إبعاد طابع القداسة عن التراث التي تأتت من ظاهرة التوحيد بين الدين والتراث لأن الدين يدل على رابطة إلهية في حين أن التراث إنساني.

وبالتالي فهو يحاول تأسيس منظومته الفكرية على نقد تلك النصوص التراثية من خلال : "التفسير، الاجتهاد، الاستنباط"، لاستعادة العقل والوعي العلمي العربي المغيبان، حيث يقول: "هكذا تحددت قوانين إنتاج المعرفة في الثقافة العربية على أساس سلطة النصوص وأصبحت مهمة العقل العربي محصورة في توليد النصوص من نصوص سابقة". (أبوزيد، 1995) وهنا نؤكد فكرتنا السابقة حول ضرورة تحيين فهم النصوص القرآنية من خلال التكييف والتكيف.

وعلى نفس النحو خطى محمد أركون خطوات هامة باتجاه احداث القطيعة مع النصوص التي قرأت التراث قراءة إيديولوجية، وتأسيس مناهج جديدة تعتمد على الفكر الغربي في التقنيات الإجرائية التي تمكن من التفريق بين القراءة السلفية للتراث والثقافة السائدة بهدف الوصول إلى التغيير على المستويين الفكري والاجتماعي.

لقد أدت دراسة الفكر العربي من قبل المستشرقين إلى حجب الكثير من التفاعلات الفكرية العربية وكانت تلك الدراسة بطبيعة إخبارية، لأن الباحث الغربي حرم الفكر العربي والإسلامي من الدراسة العلمية القائمة على أساس تطبيق الإجراءات المنهجية الحدائية التي تعتمد من بين ما تعتمد على الأنثروبولوجيا والتفكيكية كأساليب فهم العلاقة بين النص والمعنى وغيرها من الإجراءات العلمية: تلك الأساليب التي تساعد على كشف حقائق الفكر التراثي العربي الإسلامي والمساهمة في تغيير واقعه الفكري المتأزم. لقد اكتفى المستشرق بالإثنوغرافيا كإطار منجي للدراسة.

لقد أدت القراءة الواعية التي أجراها أركون للفكر للإستشراق، إلى تنديده بتلك المواقف الغربية. وعلى وجه الخصوص فلقد ندد بالإتجاه الأوروبي السائد اتجاه الثقافات الأخرى التي يتحكم بمسارها وتطورها عن طريق فرض نماذجه وقوابله. ألم يكن من الضروري أن يتراجع المستشرق عن نظريته الإثنوغرافية التي يحملها عن الثقافات الأخرى. وكان بالأحرى أن يطبقها على المجتمعات الغربية نفسها وفق ثقافتها منهجيا لمقاربتها أنثروبولوجيا بالخط الذي افتتحه، جورج بلانديه (George blindiez) أو بيير بوروديو (pierre Bourdieu).

إن الفكر الغربي الذي كثيرا ما يكيل بمكياليين، يزاوج بين منهجين للدراسة أحدهما علمي دقيق يطبقه على ثقافته وموروثه الفكري، يعتمد فيه على الطرق والأساليب التفكيكية والأدوات المنهجية الموضوعية، والآخر إيديولوجي يهدف من خلاله إلى تثبيت مركزيته الفكرية والإعلاء من شأن صورته العلمية، ويعتمد فيه على الملاحظة والوصف اللاموضوعي ضمن دراسة استرجاعية، تقوم على سرد المواقف السلبية في هذا الفكر

بالإضافة إلى حصره في التجليات الأصولية المزمّنة للدين، أي تأطيره ضمن سياق مغلق. (أبوزيد، 1995)

إن تعدد النقاد والمفكرين، وبالرغم من الاختلاف في توجهاتهم ورؤاهم، فإنهم جميعاً حاولوا إبراز وإثراء الموقف الثقافي الذي يعتقدون أنه كفيل بانتشال الفكر العربي من الجمود والتبعية. تلك المهمة التي لم تنجز بعد والهدف الذي لم يتحقق. وبذلك لم يستطع الفكر العربي تجاوز أزماته الخائفة.

و إذا كان محمد عابد الجابري من أبرز أقطاب الفكر العربي ومن أشهر نقاده، فإنه يعترف بتلك الحقيقة المرة، فيقول: "إن الخطاب العربي الحديث المعاصر لم يسجل أين تقدم حقيقي في أية قضية من قضاياها منذ أن ظهر كخطاب يبشر بالنهضة ويدعو إليها". (الجابري، 1990)

وأصبحت هذه هي حقيقة الفكر العربي وأمره الواقع الذي لم يزد الحالة إلا مزيداً من الإرهاق مما أنتج إشكاليات جديدة معقدة معرفياً. ويقول الجابري أيضاً: "نحن الآن لا ننتج علماً، إنما نستهلك بعض العلم الذي ينتجه الغير، وأحياناً نستهلكه استهلاكاً غير سليم". (الجابري، 1990)

وهذا الاستهلاك والانطلاق من المفاهيم الغربية جعل الخطاب العربي يقع فيما يعلن ذمه والفرار منه ويتهم به الآخرين، وهو الوقوع في الإيديولوجيا المقنعة، إن الخطاب العربي المعاصر في وضعه الراهن هو خطاب الإيديولوجيا بامتياز، إنه جملة من التشكلات الإيديولوجية المتباينة، تتصارع فيما بينها حول واقع لم تتشكل فيه، بل تبلورت خارجه، وجاءت تفرض نفسها عليه عن طريق الإمامة والسياسة.

وبهذا الشكل تحول التراث العربي الإسلامي إلى حقول تجارب، أخضعت لتسلط عليها مختلف المناهج والنظريات الاشتراكية والوجودية والتاريخية وغيرها دون انتاج معرفي محدد وبدون أدنى تطور أو تقدم.

كذلك يشير البعض ان الهوية في المدخل الفلسفي تختلف من المدخل النفسي والاجتماعي، فبعض العلوم يجعلها مواضع دراسة واخر أداة للتعرف على مختلف الاقوام والوثنيات. (مناصرية (2011/2012)، وأشار كثير ان الهوية مفهوم غربي لم يعرفه الفكر العربي الا حديثا، فالمصباح المنير والقاموس المحيط، ولسان العرب كلها تخلوا من هذه المرادفات. (سالم، 2008)

وإذا كانت الهوية من المنطلق الغربي هي امتداد لما هو ماضي ومواكبة لما هو حاضر، فهي عملية معاشة مستمرة عكس المنطلق العربي والتي تظل فيه حبيسة التراث والماضي.

5. الفكر العربي وتحديات العولمة والهوية الثقافية:

إن العولمة هي أحدث مرحلة وصل إليها العالم وهي نتاج حتمي لما سبق من المراحل، لم تأتي من العدم ولكنها الوجه الجديد للحدثة وهي مكملة لها لأنهما ارتكزتا على نفس الأسس والمبادئ وتهدفان إلى نفس النتائج بأساليب مختلفة. وإذا كانت الحدثة ظاهرة عنت بتغير أنظمة الحكم والنظم السياسية من نظام ملكي إلى نظام ديمقراطي، فإن العولمة وكامتداد ساهمت في تكريس هذه الأفكار وإعادة بلورتها واتحاتها في نظام شمولي عالمي. (البرغثي، 2007) والعولمة في إطلا الفكر العربي انتقائية مقتصرة على الهوية العربية الإسلامية متجاهلة لما بعدها وما قبلها. (جابر عصفور وآخرون، 2008)

ولعل على الأمة الإسلامية لم تكن بالمستوى المطلوب في انتاجها العلمي فهي اما إعادة انتاج ثقافة الغرب او كمستهلك لمنتجاته التكنولوجية، وبالتالي فالباحث العربي اليوم يقع في مفترق طرق عند اول خطوة يخطوها في مجال بحثه، طريق الانفتاح الذي قد يؤدي الى اختراق ثقافي، او طريق الجمود الذي هو كنتيجة للتمسك بالأصالة والتراث.

فالعولمة تفتح اليوم هوية جديدة " الهوية الكونية " التي تعمل على محو الهويات المحلية وتجسيد هوية واحدة عالمية ملغية بذلك اهم خصائص الهوية وهي التميز. (الهرماسي،

(1990)

والمطلوب من المفكر العربي اليوم هو تحديد وتشكيل هويته القوية في ظل الإرادة والابداع، فالعالم اليوم يطالب بالجودة في الأفكار والقدرة على التحكم واتخاذ القرارات.

6. خاتمة :

في الأخير يمكن القول أنه ليس عيباً أن نأخذ من حضارات الأمم وتجارب الشعوب ما يفيدنا، لكن العيب أن نظل عالمة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي والأهم هو أن نضع لمستنا التي تميز الفكر العربي المعاصر عن الفكر الغربي من خلال معالجتنا ومحاولة فهمنا للأمور في مقابل الابتعاد عن التبعية الفكرية المطلقة التي من شأنها أن تمس بتراثنا و تخلص هويتنا الفكرية، فخلاصة القول أن إشكالية التراث و الفكر العربي المعاصر، اتسعت مضامينها واستنفدت أغراضها، وتغير مضمونها ليتحول إلى معنى جديد يقوم على التحرر في مواجهة الإلحاق والهيمنة وعلى الاعتراف بالآخر والحوار معه بدون انغلاق وجمود وذلك قائم على قاعدة الاستيعاب والانفتاح في مقابل الاستقلالية و احترام الخصوصية الفكرية والعلمية المتغيرة عبر الزمان والمكان.

6. قائمة المراجع:

- جابر عصفور وآخرون. (2008). *العولمة والهوية الثقافية*. القاهرة - مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- الجابري محمد عابد. (1984). *تكوين العقل العربي*. بيروت - لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجابري، محمد، عابد. (1990). *إشكالية الفكر العربي المعاصر*. بيروت - لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- فاطمة الزهراء سالم. (2008). *نحو هوية ثقافية عربية إسلامية*. القاهرة - مصر: دار العالم العربي.
- محمد الجوهري. (2006). *مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري*. القاهرة: دار الكتاب المصري.
- محمد حسن البرغشي. (2007). *الثقافة العربية والعولمة: دراسة سوسيولوجية لأراء المثقفين العرب*. بيروت - لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- محمد صالح الهرماسي. (1990). *إشكالية الفكر العربي المعاصر*. بيروت - لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مناصرية م. (2011/2012). *هوية المجتمع المحلي في مواجهة العولمة*. بسكرة - الجزائر: جامعة بسكرة دكتوراه غير منشورة.
- نصر، حامد أبوزيد. (1995). *النص والسلطة والحقيقة*. الدار البيضاء - المغرب: المركز الثقافي العربي.